

الجيل

لفتحى غانم

قصة الجبل ، قصة محقق توفده السلطات الحكومية ليحقق في اختلاسات وسرقات من أخشاب وطوب وأدوات البناء في القرية النموذجية التي تبنها الحكومة لأهالى قرية الجرنه ، وهى قرية تقع على الضفة الغربية للنيل في مواجهة مدينة الأقصر وفي منطقة مزدحمة بالآثار الفرعونية ، وأهلها يرفضون الانتقال من قريتهم الجبلية إلى هذه القرية النموذجية حيث تريد لهم السلطات الحكومية أن يعيشوا . وكان هذا التحقيق بناءً عن شكوى تلقتها إدارة التحقيقات بوزارة المعارف موقعة باسم (حسين على) أحد أهالى قرية الجرنه ..

وفي بدء القصة نجد مدير التحقيقات يستدعى فتحى غانم - فالمؤلف يقوم بدور المحقق في القصة - ويبلغه أنه سيكلفه بعمل يعرضه لخطر الموت ، خطر القتل في جبل بالصعيد ، ولهذا وقع عليه اختياره لأنه أولاً أعزب كما أنه يبدو ضخماً كالملاكم أو المصارع . وهذه الكلمات ينجح فتحى غانم في إثارة حب الاستطلاع لدى القارئ وإغرائه بمتابعة أحداث القصة التي تشبه في سطورها الأولى بداية القصص البوليسية . والواقع أن أول ما يلحظه القارئ هو نجاح فتحى غانم في استخدام هذا اللون من التشويق والإثارة من أول القصة إلى آخرها بحيث ندرك أنه مؤلف مسيطر على هذه الناحية من التكنيك القصصى .

ولكن خلال هذه الكلمات نجد أن المؤلف يوضح أن لعقلى المحقق دخلاً كبيراً في تفسير القانون وتطبيقه ، فهو يؤمن بأن القانون لا يفصل عمن يطبقه ، فإذا ذهب أحد المزمتمين للتحقيق في إحدى القضايا الخلقية بمدرسة للبنات فإنه سيطلب في نهاية التحقيق بإجراء مختلف عما لو قام بالتحقيق أحد الشبان المتحررين . وهذا التوضيح له أهميته في إدراك الاتجاه الذى سلكه المؤلف المحقق في القصة ، والذى ترتبت عليه نتائج كان يمكن أن تكون مختلفة تماماً في حالة وجود محقق آخر .

ويسافر فتحى غانم إلى قرية الجرنه ليقوم بتحقيقه ، ولم يكن القطار مجرد وسيلة للمواصلات تنقله من العاصمة إلى الصعيد ، بل كان وسيلةً فنيةً كذلك ، فهو ينقلنا معه ، وهو ينقلنا أولاً عن طريق اللغة التى تنطقها هذه السيدة الأسبوطية المسافرة التى تتكلم عن باريس بفرنسية عذبة ثم ما تلبث أن تتحدث بالصعيدية ، وهكذا أوضح لنا فتحى غانم أن لكل مستوى من مستويات اللغة وظيفة فنية ، وكانت اللهجة الصعيدية هى إحدى وسائله الفنية التى نقلنا بها من القاهرة إلى الصعيد . بل إن المؤلف يقول لنا صراحةً « كنت أنتقل محمولاً بهذه اللهجة الصعيدية إلى أقصى الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة »^(١) .

ثم هو ينقلنا من القاهرة إلى الصعيد عن طريق الانتقال من عربات الهواء المكيف فى القطار إلى عربات الدرجة الثالثة فى القطار نفسه ، الانتقال من الحقائق الجلدية الفاخرة المكتظة بالملابس الصوفية والحريرية وزجاجات العطر وأربطة العنق والأرواب دى شامبر إلى السلال الملأى بالشاي والسكر والبيض والمقاعد الخشبية ...

ثم هو ينقلنا من العاصمة إلى أقاصى الصعيد عندما يتحرك القطار ويبدو النخيل العالى والقرى السوداء والماشية التى ترعى ... وهكذا تحولت عربة تكييف الهواء إلى جزيرة صغيرة وسط بحر غريب من الخضرة والسواد والجبال الصفراء العالية عند خط الأفق . وهكذا أصبح كل ما يحيط به هو عالم ركاب الدرجة الثالثة .. إنهم الآن يتنفسون بحرية أكثر ويستقبلون بأعينهم مناظر مألوفة أكثر ، ونحن فى طريقنا إليهم حيث يعيشون هناك .. فى قرية الجرنه . ونزل فتحى فى الأقصر ضيفاً على وكيل النيابة ، ووكيل النيابة هو أول من لقيه ممن يمثلون السلطة الحاكمة فى هذا الصعيد النائى . وقد حاول فتحى غانم أن يعطينا الصورة الخلفية أو الداخلية لهذا « الوكيل النيابة » من ناحيتها النفسية والمادية . فن الناحية النفسية نجد أن وكيل النيابة هذا يحرص على أن يبدو بمظهر وقور أنيق متعال يضطره إلى عدم مخالطة الناس ، وهذا المظهر نفسه هو الذى تسبب فى خلق الصورة الداخلية المناقضة ، فهو يعانى من شعور مزمن بالوحدة ولهذا فهو « مسكين وحيد داخل نفسه ، يبحث عن متعة أو تسلية خفية لا يدركها أحد من الناس كأن يتمتع نفسه برؤية الأميرة »^(٢) .

(١) فتحى غانم ، الجبل ، العدد ٥٩ من سلسلة الكتاب الذهبى ، دار روزاليوسف ١٩٥٩ ، ص ١٣ .

(٢) الجبل ص ٢٠ .

أما الصورة المادية الداخلية فلا تقل تناقضاً ، فالمؤلف يقدمه لنا واقفاً في منزله بالفائلة واللباس ثم متجولاً بقباب خشبي ، مناقضاً بذلك مظهره وهو في المحكمة ينظر إلى المتهمين في تعال وغطرسة وكبرياء . وفي حجرة نومه سرير سفري كسرير المستشفى ، ومسار مثبت في الحائط علق عليه كل ملابسه المتسخة ، ومقعد خشبي قاعدته مكسورة لا يصلح للجلوس فاستعمله كدولاب^(١) ولكن عندما ارتدى ملابسه « تحول فجأة إلى رجل أنيق ، وضع الطربوش فوق رأسه فأصبح وقوراً ، وتغيرت ملامح وجهه كأنه لم يكن منذ دقائق يصنع الشاي فوق وابرر الجاز وهو بالفائلة واللباس » .

وكأنما فتح غانم حريص على أن يحطم هذه الهالة الظاهرية لمثل السلطة الحاكمة ، فيطلعنا على فوضاه الداخلية ، وهو لا ينكر أن في حياة الشعب فوضى أيضاً ، ولكن الفرق بينها أن فوضى الشعب غير مسترة بينما فوضى وكيل النيابة يقنعها صاحبها بعطر الإتكسون والصوف الإنجليزي والطربوش^(٢) ، وهذا التحطيم لقداسة السلطة الحاكمة هو أول علامات الاتجاه الذي سيسلكه المحقق فتحي غانم .

والشخصية الثانية التي قابلها فتحي غانم وتمثل السلطة الحاكمة هي شخصية الأميرة أخت الملك . وقد قدمها لنا المؤلف في أول الأمر وهي تجري وخلقها يجري ثلاثة شبان يرتدون القمصان المشجرة وجسمهم مترخ ونظراتهم قلقة بلهاء ، ثم قدمها لنا مرة ثانية وهو في المركب يجتاز النيل إلى الشط الغربي حيث تقع قرية الجرنه ، فقد كان القرويون يتحدثون عن صلاتها الجنسية « كل يوم يا بوى .. يجييو لها ضابط حليوة سن العيال بتوع مصر و... ع تبلهم »^(٣) . وكان وجود الأميرة بالأقصر قد سلبه مهابته وسلطانه كمحقق ، فهو عندما يقصد مفتش الآثار يجده مع سمو الأميرة ، ويتحدث مع السعاة فيجيبونه بلا اكتراث كأنهم في حاية سمو الأميرة^(٤) . ولهذا عندما سمع القرويين يعرون الأميرة ويتحدثون عنها باشتاء اتخذ موقفه إلى جانبهم بلا تردد « وشعرت براحة نفسية غامرة وأنا أستمع لكلام العامل . حطم الرجل بكلماته البسيطة المعبرة تلك الرهبة التي شعرت بها عندما ران علينا الصمت وهي تمر أمامنا في بهو فندق وتر بالاس في الليلة الماضية ، كما حطم الرجل تلك الهالة التي أحاطت بالأميرة وهذا الجرم من التعالي والكبرياء والذي ساد تفتيش الآثار لمجرد أن كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة

(٣) الجبل ص ٢٧ .

(٤) الجبل ص ٢٥ .

(١) الجبل ص ٢٢ .

(٢) الجبل ص ٢٦ .

هابو»^(١) . وهكذا حطم فتحى غانم مهابة رمز آخر من رموز السلطة الحاكمة ، بل اعترف هذه المرة أنه أحس إزاء ذلك براحة نفسية غامرة .

وعندما وصل إلى الشط الغربى ركب لورى الآثار حتى وصل إلى القرية النموذجية ، وهناك تقابل مع ثالث ممثل للسلطة الحاكمة ، ذلك هو المهندس الذى أشرف على بناء القرية النموذجية . والواقع أننا لا نستطيع القول إن المهندس ينتمى إلى السلطة الحاكمة تمامًا ، ولكننا نستطيع القول بأن الفئة الحاكمة استعانت به لينفذ لها أغراضها واستعان هو بها لينفذ بدوره مشروعاته الفنية ، فهو منتفع ومنتفع به . وقدمه لنا المؤلف المحقق حين لمح أول مرة فى بهو فندق ونتر بالاس ، باعتباره «رجلاً شاحباً ذا صوت ناعم لين ، فيه ملل وسأم ، وكان يبدو عصيباً رغم هدوئه الظاهرى»^(٢) .

ونقطة الضعف فى المهندس ، تختلف عن نقطة الضعف فى وكيل النيابة والأميرة ، ذلك أنه رجل يعيش فى عالمه المثالى لا يهيمه مدى ملاءمته لعالم الواقع . فقد بنى قرية بيوتها مكيفة الهواء ذات جامع تنسجم فيه مساقط الضوء مع خطوط البناء وحركات المصلين كأنهم يرقصون باليه ... قرية رائعة ومهندس مخلص ، ولكنه لم يسأل نفسه قبل أن يبدأ هذا العمل ماذا يفعل أهل الجبل عندما يسكنون هذه القرية النموذجية الرائعة ويبتعدون عن الجبل مصدر رزقهم ؟ وهو السؤال الذى اكتشفه المحقق فتحى غانم فيما بعد فحدد موقفه نهائياً كما سئرى . وهكذا كان المهندس شبيهاً إلى حد كبير بأصحاب المدن الفاضلة التى لا تصمد أمام التجربة الواقعية . وقد استمع المحقق فتحى غانم إلى قصة أهل الجبل من ثلاثة رواة ، كان أولهم هو هذا المهندس ، وقد روى قصته للمحقق وهما يلعبان الشطرنج ويتظران هجوماً ليلياً من أهل الجبل ، (وهنا نلمح مثلاً آخر لأسلوب التشويق الذى يسود القصة) وكان من الطبيعى أن يقف المحقق موقف المستريب من قصة الجبل كما يروىها المهندس . لا لأن هذه هى طبيعته باعتباره محققاً كما يقول ، بل لأن المهندس كان متعاوناً مع السلطة الحاكمة ومنفذاً لأغراضها ، وهى السلطة التى حرص المحقق فتحى غانم على تحطيم قداستها وتعريبها وكشف فوضاها وانحرافاتهما..

ولهذا فنحن لا نستمع إلى قصة المهندس كما رواها على لسانه مباشرة ، بل نسمعها منقولةً

(٢) الجبل ص ٢١ .

(١) الجبل ص ٢٧ .

إلينا على لسان المؤلف المستريب ، ولهذا فنحن نجد في قصة المهندس أن العمدة ورجاله يتندرون بغضبه عندما يكتشف أنهم غشّوا سائحًا وباعوه تمثالًا مقلدًا على أنه أثر فرعونى ؛ ولهذا نجد الحديث عن أسلوب التفرقة الذى لجأ إليه المهندس بين أهل القرية ، فعين منهم مقاولاً للأفكار الذين يعملون فى بناء القرية النموذجية وقد أخذ هذا المقاول يحاول عبثًا أن يحرص الأهالى على السكنى فى هذه القرية . ولو كنا نتلقى وجهة نظر المهندس مباشرة لما وجدنا أمثال هذه التعبيرات التى تدل على وجهة نظر معادية للمهندس .

وفى رواية المهندس يتضح أن هناك صراعًا بينه وبين عمدة الجرنه ، وهو رمز للصراع بين السلطات الحاكمة وأهالى الجبل ، ولكن يتضح لنا أن أهل الجبل يتصارعون أيضًا مع الجبل نفسه ، ويتضح لنا أن هذا الصراع الأخير هو الصراع الدرامى الحقيقى فى هذا العمل الفنى . ذلك لأن تحيز فتحى غانم ضد السلطة الحاكمة وانضمامه إلى أهل الجبل - كما سترى - أفتقد الصراع بين الحكومة وأهل الجبل عنصره الدرامى ، وهو تحيز برره أن المؤلف أحد شخصيات القصة له الحق فى أن يعجب وأن يتهكم . أما الصراع بين أهل الجبل والجبل نفسه فأشبه بصراع الإنسان مع القدر فى الدراما اليونانية ، « إن الكهوف هى المداخل الطبيعية للقبور الفرعونية التى لم تكتشف بعد ، وكل أسرة لا تفكر فى أنها تسكن فى كهف بل هى تقيم على باب كنز .. على باب الجنة »^(١) . وعندما يتقدم الليل ، تجتمع الأسرة ، رجالاً ونساءً وأطفالاً لينقبوا داخل الكهف ، يكحتون شهوياً وسنين بمعاولهم البدائية ضاربين فى الصخر الصلد ، مغامرین بحياتهم ، متحدّين الطبيعة فى صورة الحجارة الضخمة التى تقف بينهم وبين ما يريدون .. متحدّين لعنة الفراغة التى يفسرون بها قتلهم الذين يموتون تحت الحجارة التى تسقط فوقهم أثناء الكحت متحدّين مكر الفراغة ودهاءهم فى حياة قبورهم »^(٢) .

وهذه الرواية الأولى كانت تمهيداً ضرورياً للروايتين التاليتين ، يروى إحداها العمدة ويروى الثانية حسين على الموقع على الشكوى المرسلة إلى إدارة التحقيقات .

عندما نستمع إلى رواية العمدة لا نجد المؤلف يقف موقف المحقق المستريب كما فعل وهو يستمع إلى رواية المهندس ، بل لقد تضاعل المحقق بحيث ضاعت صفته تماماً وأصبح العمدة

(١) الجبل ص ٤٥ .

(٢) الجبل ص ٤٦ وهنا نلاحظ ضعف الأسلوب الذى لا يتمشى مع الموقف الدرامى المعبر عنه ، وواضح أن سبب الضعف هو كثرة استخدام الأسماء الموصولة فى الجملة الواحدة .

هو المسيطر على الموقف على عكس المفترض ، ولئن كان تجاهل هيئته كمحقق بسبب وجود الأميرة قد أثار فيه الحق فإنه تقبل هنا تجاهل هذه الصفة برضى ودون أى احتجاج ، فهو يتحدث عن العمدة قائلاً : جذبني بشدة فوقعت على الأرض إلى جانبه وفرت السحالي مذعورة من حولى . كان العمدة العجوز رجلاً قوياً ، ودبت القشعريرة في بدني ، كنت أرعد من كل شيء ، من البندقية ، والعمدة والسحالي ، والأرض التي وقعت عليها ، ولم يترك العمدة يدي ، نفرسني بعينييه كأنهما مساران يثقبان رأسي ، وتأتى وهو يحثني فيّ دون أن يهتز له جفن أو رمش أو عضلة في وجهه الخشن المجعد . وسألني فجأة في صوت عميق كأنه صادر من بئر سحيق : إنت مين ؟ كان يسألني وليس في عينيه ولا في وجهه ما ينم عن انفعال أو قلق .. كان وجهه جامداً صليداً كالصخر . وقلت محاولاً أن أكون هادئاً .. « (١) .

وهكذا نجد أن المحقق يصبح هو المحقق معه ، بل ويتلبس الحال النفسية للمحقق معه من خوف ودفاع عن النفس لا سيما حين أراد العمدة أن يتحقق مما إذا كان من رجال المهندسين وعندما أراد أن يعرف عنوان عمله في القاهرة . وهكذا أصبح العمدة هو الذي يقف موقف المشتكك ، نفس الموقف الذي كان يقفه فتحي غانم من المهندسين منذ ساعات وهو يروى له قصة أهل الجبل . ولم يطمئن العمدة إلا حين أخذ عليه عهد الله أنه من مصر وليس من رجال المهندسين (٢) .

ولم تكن قصة العمدة كلها رواية على لسانه ، بل إن جزءاً منها تم عن طريق المشاهدة الفعلية ، فقد مضى المحقق مع قافلة من النساء والرجال نحو المقابر ليشاهد بنفسه جسم الجريمة ، وهناك تكشف له أشياء ، تكشف له أن الجبل هو الخاطئ الأخير في حياة هؤلاء القوم . فقد « طردتهم ظروف الحياة من الحقول وأبعدتهم عن كل شيء ، وتقهقروا حتى أسندوا ظهورهم إلى الخائض .. إلى الجبل .. هنا وقفوا ليحاربوا من أجل بقائهم في الدنيا » (٣) .

وشيثاً فشيئاً يترك قضية هؤلاء القوم وتسلور كل المقدمات السابقة لكي يصرخ قائلاً : « صخور الجبل في داخلها عرق أجدادهم وتعبهم ، تخفى الكنوز التي صنعوها وحملها الأغنياء - الأشراف - إلى مقابرهم ، ولقد جاءوا إلى الجبل وراء حقهم الذي دفعه الأشراف ، يريدون استعادة الميراث الذي خلقه لهم الأجداد » (٤) .

(١) الجبل ص ٦٣ .
(٢) الجبل ص ٦٨ .
(٣) الجبل ص ٧٣ .
(٤) الجبل ص ٧٣ .

ثم يتكشف له شيء آخر ، يبدو أنه تكشف له من خلال عملية التعبير نفسها ، بحيث أصبحت عملية التعبير وسيلة من وسائل المعرفة ، وهذه لاشك لحظة من لحظات التجلي التي يصل فيها الفنان إلى قمة النشوة وهو يكتشف - من خلال عملية التعبير - دقائق ما كانت تبدو له إلا من خلال التعبير نفسه . ذلك أنه خطر للمؤلف المحقق سؤال يقول عنه إنه خرج من عقله الباطن (معبراً بذلك عن لحظة الرؤيا التي عاشها أثناء عملية التعبير) وقد خطر له هذا السؤال أثناء مشاهدته صور العمل في الحقول الفرعونية مرسومة على جدران الكهوف ، ذلك السؤال هو ما أشرنا إليه سابقاً : ما العمل الذي ينتظر أهل الجبل لو تخلّوا عن كهوفهم وهبطوا إلى القرية البوذية ؟^(١) .

وانتابته رعدة ، هي في الواقع رعدة الكشف عن هذا العمق الجديد للقضية - على حدّ تعبير المؤلف - وهو كشف حسم الأمر بالنسبة للمحقق وجعله ينضم نهائياً إلى « المتهمين » ، ووضحت نتائج المقدمات البعيدة ، فها هو ذا المحقق الشاب المتحرر الذي يفصح الفوضى الداخلية لوكيل النيابة ويعرى الأميرة كأنثى ويكشف عن مثالية المهندس المنصرف عن عالم الواقع ، هاهو ذا نجده يستمع إلى إحدى الزوجات من أهل الجبل وهي تقول له إنها تعتبر مقابر الفراعنة بيوتها ، والبيوت التي بناها المهندس مقابر ، فيجيبها في حماس : إن شاء الله مش ح تنزلوا البنات وتفصلوا هنا زى ما انتم عاوزين . ثم يعلق على ذلك قائلاً : خرجت من طبعي كمحقق وأصدرت حكماً في القضية^(٢) .

وهكذا جلس « المحقق » يصنئ إلى رواية العمدة وقد اتضح اتجاهه نهائياً في القضية التي يقوم بالتحقيق فيها . وعندما بدأ العمدة حديثه قائلاً إنه لا يهيمه المهندس ولا الحكومة ولا الملك ، لم يعد هناك محقق ومحقق معه ، بل أصبح فتحى غانم واحداً من المتهمين « وتلفت حولي في جزع ، كأن هناك من يتجسس علينا . إن تحدّى الملك علناً على هذا النحو قد يؤدّى إلى رفق من وظيفتي ، وربما قبضوا علينا وألقوا بنا في السجن ، أنا والعمدة »^(٣) . وهكذا استخدم ضمير المتكلم الجمع لأول مرة وجمع بين نفسه والعمدة .

ويتطور الكشف عن شخصية العمدة شيئاً فشيئاً ، فإذا نحن أمام صورة بطولية ، فهو من الناحية الجسمية « طويل جداً .. عملاق .. مارد »^(٤) . أما بطولته النفسية فتبدو في موقفه من

(٣) الجبل ص ٧٨ .

(١) الجبل ص ٧٤ .

(٤) الجبل ص ٦٦ .

(٢) الجبل ص ٧٨ .

الأميرة حين أقبلت لتشرف على حفل افتتاح القرية النموذجية ، وقد قاطعها أهل الجبل فجلب الضباط فرقة كبيرة من فلاحى أحد الباشوات من الشاطئ الشرق لاستقبال الأميرة على أنهم من أهل الجبل ، وإذا بالعمدة يقبل وحده فى بطولة لا تعرف الخوف ليتحدث إلى الأميرة ، وعندما يقبض على يدها ليحييها « أحسّت الأميرة بقوته فى ذراعها وفى ارتجاج ثديها وفى تقلص بطنها وسرت الرعدة كالكهرباء فى ساقها »^(١) . وهكذا نجد فى هذا الالتقاء بين الأميرة والعمدة ، أنه بمقدار ما عرى فتحي غانم الأميرة كأنثى وهى ممثلة السلطة الحاكمة ، بمقدار ما أضفى ألوان البطولة والرجولة على العمدة رمز المتهمين وزعيمهم .

ولقد طلب العمدة من الأميرة أن تخبر أخاها الملك أن أهل الجبل ليسوا آثارًا بل هم كالشجر إذا انتقلوا ماتوا^(٢) . وهدد العمدة المهندس أنه لو بات الرجال الذين جلبهم من الشرق فستحدث معركة ، ولم يلبث المهندس والأميرة وأصدقاؤها الأمريكيون أن أذعنوا لإلذار العمدة ولجأ الجميع إلى شاطئ النيل كفلول جيش مدحور^(٣) .

وتبلورت صورة البطل فإذا المؤلف يقول : كنت أقول لنفسي لو سألتنى أحد ما هو تعريف الرجل الحقيقى فى هذا العالم .. لأجيبته على الفور .. إنه عمدة هذا الجبل^(٤) .

وفى الوقت نفسه بدأ المحقق يشعر بالقرص من مهمته : ما هذه السخافة التى جئت من أجلها ، ماذا أستطيع أن أفعل فى مشكلة من هذا النوع ، ماذا يريد منى مدير التحقيقات .. أيقنت أنى لا أقوم بتحقيق . لى أقوم بتزوير مشاعر العمدة ومشاكل أهل الجبل ومتاعبهم التى يعانون منها ، وفقرهم الذى يقاسون منه ، وأملهم الذى ييحثون عنه فى بطن الجبل^(٥) . ثم يكتشف أن مهمته كمحقق هى طمس كل هذه الحقائق وتحويلها إلى أسئلة سخيفة ، وتخييل مدير التحقيقات يقول له ساخراً « إنت عامل مصلح اجتماعى واللايه ، دا معدش شغللك يا أستاذ ، أنت تحقق فى التهم الموجهة بس »^(٦) .

وهكذا وضحت المعركة النفسية على أثر تحوله من الجلوس على كرسي المحقق إلى الوقوف مع المتهمين . فيتخييل مدير التحقيقات يقول- له : إحنا مالنا ومال إن كان فيه شغل وإلا مفيش .. بعدين نعرفت كلنا وتبقى مافيش حاجة اسمها إدارة التحقيقات .. لو وكيل

(٤) الجبل ص ٨٨ .

(٥) الجبل ص ٨٨ - ٩٩ .

(٦) الجبل ص ٨٩ .

(١) الجبل ص ٨٥ .

(٢) الجبل ص ٨٦ .

(٣) الجبل ص ٨٨ .

الوزارة شاف المذكرة دى .. ح يقول عليك شيوعى . ثم يقول : وسأكتب مذكرة أخرى خالية من كل الحقائق التى عشتها والتى أشعر بها محفورة فى قلبى ، وسأشم بعد ذلك رائحة عفن تتصاعد من داخلى ، رائحة ضمير ميت^(١) . وهكذا اتضح أن السلطات الحاكمة تريد أسلوباً واتجاهاً معيناً فى التحقيق ، وأن تنفيذ ذلك لا يمكن أن يتم إلا عن طريق ضمير ميت عفن . وكان لابداً للمحقق أن يعود إلى الشط الشرق لأن الليل قد أوغل ، وهنا تظهر على مسرح القصة شخصية الشيخ طلباوى الذى طلب منه العمدة أن يقوم بتوصيل المحقق . والشيخ طلباوى يكاد يكون المتعلم الوحيد بين أهل الجبل ، وهو أخو زوجة حسين على الموقعة باسمه الشكوى ، ومنه يعرف المحقق حقيقةً جديدةً ذلك أنه هو كاتب الشكوى ، ويعطينا المؤلف صورة مقززة له لأنه لا يوافق أهل الجبل على رأيهم ؛ ولأنه ينشئ قصيدة ترحيب بالأميرة فتفتحه خمسة جنهات ، فهو أقرب إلى شخصية الانتهازى فى قومه .

ثم يظهر البطل الثانى فى قصتنا ، وهو حسين على ، يبرز فجأةً من الظلام ، بحيث انزعج الشيخ طلباوى حتى أنه فقد لغته الفصحى (ونلاحظ أن اختلاف اللهجات فى اللغة له هذه المرة وظيفة نفسية) . وأصر حسين على انصراف الشيخ طلباوى ليفرد بالمحقق الذى انضم إلى المتهمين . وهكذا نستمع إلى الرواية الثالثة عن أهل الجبل . ولقد استمعنا إلى الرواية الأولى من المهندس ليلة كاملة ، واستمعنا إلى الرواية الثانية من العمدة نهائراً كاملاً ، وها نحن نستمع إلى الرواية الثالثة فى الليل مرةً أخرى .

وإذا كان العمدة بطلاً بين أهل الجبل فهو كذلك بحكم منصبه ، أما حسين فهو بطل بشخصيته ويمدى استقطابه لمشاعر أهل الجبل : صوته القوى ونظراته الثابتة وكبرياؤه .. إن هذا النوع من الرجولة نفتقده فى حياتنا فى القاهرة .. هذه الصراحة المباشرة ، هذه القدرة الحارقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة وبعد مجرد ترديد قسم أو عهد^(٢) .

ولكى يكون المحقق فى نفس هذا المستوى الذى يشيد به يجب أن ينزل عن صفته كمحقق ، وكان قد نزل عنها فى الواقع كما رأينا . وتهكم فتحى غانم فى قصة الجبل من أولها إلى آخرها أنه كمحقق لن يحصل على أية معلومات أو اعترافات ، ولكنه بتنازله عن هذه الصفة سيحصل على كل شيء ، ولهذا فهو يقول : يجب .. أن أكون رجلاً مثله ومن طرازه ،

(٢) الجبل ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١) الجبل ص ٩٠ .

أنجاهل صفتي كمحقق وأنسى تمامًا حيل التحقيق ومكره^(١) .

وهكذا استمع فتحى غانم إلى الرواية الثالثة لقصة أهل الجبل ، وقبل أن يبدأ حسين على روايته كانت المشكلة قد تبلورت في ذهن فتحى غانم على هذا النحو : إنها اصطدام خطير بين إنسانية صادقة ساذجة حائرة وبين مدنية سطحية قلقية^(٢) . وقد حصل فتحى غانم على بلورة القضية على هذا النحو بعد مجهود طويل كانت بذرته الأولى موجودة منذ وضع نفسه في جانب المحققين الشبان غير المترمتين ، ومنذ وقف موقف المتهم من السلطات الحاكمة التي كان من المفروض أن يكون أحد أفرادها ، ومنذ بدا له العمدة وحسين على وأهل الجبل أبطالاً عمالقة . وهكذا لم تعد القضية قضية اختلاسات وسرقات من أخشاب وطوب وأدوات البناء في القرية النموذجية بل ارتفعت إلى مستوى إنسانى وأصبحت في نظره اصطداماً خطيراً بين إنسانية صادقة ومدنية سطحية .

ورواية حسين على أروع الروايات الثلاث ، ما في ذلك شك ، والقدرة التعبيرية الفائقة التي يمتاز بها هذا الجزء يجعلنا نتساءل عما إذا كان فتحى غانم قد عبّر لنا عن نفسه من خلال شخصية حسين على ، وبجعلنا نتساءل عما إذا كانت شخصية فتحى غانم المحقق لم تكن إلا تغطيةً لتلهينا عن التنبه إلى شخصية فتحى غانم ممثلة في حسين على ، وكأنما فتحى غانم قد خلخل شخصيته في قطبي عمله الضيق وهما المحقق والمحقق معه .

وها نحن نعود إلى الليل مرةً أخرى لنستمع من جديد إلى القصة نفسها التي استمعنا إليها من المهندس في الليلة الماضية ، ولكن هذه المرة في مستوى كَلِّ بطولة وكفاح وإصرار وإنسانية أيضاً ، وأعنى بالإنسانية تلك العواطف الصادقة التي تعرف القلق والحظات الضعف ولكنها تتماسك في النهاية .

تحدث حسين على عن طفولته مع أبيه ، ومع الخواجاية الفرنسية ، وكيف كان يحلم أبوه بالعثور على كنز في مقبرة ، وكان الكنز هو حلمه ولكنه « لم يتصور أبداً أنه يحلم ، كأن ما يريده حقيقةً ليس بينه وبين الوصول إليه إلا جبل .. وقرر أن يفثت الجبل »^(٣) . حتى انتهزت الصخور عليه ذات يوم وفقد قدميه . وتتضح المعركة الدرامية في فثتها بين أهل الجبل والجبل ونحن نستمع إلى هذه الرواية الثالثة ، فهم يكحتون ويكحتون ، والجبل شحيح ، لكنه شحٌّ

(١) الجبل ص ١١٠ .

(٢) الجبل ص ١٠٢ .

(٣) الجبل ص ١٠٦ .

لا يصل إلى الحد الذي يصرفهم عنه نهائياً ، إنه يمنحهم ما فيه من كنوز من حين لآخر مما يبعث الأمل في نفوسهم على العودة إلى كحته بعد أن أوشكوا على اليأس ، وخلال الكحت تظهر أعراض غريبة على البعض كما ظهر على والد حسين حين بدأ يفقد عقله متخيلاً - وهو المبتور الساقين - أن أهل الجبل سيستولون على الكثر ويحرمونه منه ، حتى يتسلل ذات نهار داخل الكهف أثناء غياب أهل الجبل ، وهناك يقتل ابنته التي تسلت وراءه ثم يموت بعد أن هشمت رأسه لإحدى الصخور . وانصرف حسين عن الكحت مدةً من الزمن ولكنه وجد نفسه يعود إليه أخيراً لأنهم « لابد أن يبقوا في الجبل ، والبقاء في الجبل معناه استمرار الكحت .. الكحت هو الخيال الوحيد ، الأمل الوحيد ، لكل من يسكن الجبل » . ويوهبهم الجبل أن به كثرًا فإذا اقتحموه وجدوا مقبرةً مسروقة أو بشراً يؤكد أن الكثر موجود ولكن لابد من بداية الكحت من الاتجاه الآخر . وهكذا يدور الصراع بطولياً ورائعاً ومستمرًا وفي إصرار بين أهل الجبل والجبل نفسه .

ومن خلال رواية حسين على اتضح شخصية الخواجاية الفرنسية ودورها الذي تلعبه في حياة أهل الجبل . ولعل موقف الراوية المحقق منها هو الموقف لموضوعي الوحيد من أشخاص القصة جميعهم ، إنها لا تنتمي إلى السلطة الحاكمة فيحطم قداستها ، وهي ليست من أهل الجبل فينحني أمام بطولتها ، إن جنسيتها الفرنسية جعلتها خارج المعركة رغم ثورتها على المهندس ، فلم يتفعل المحقق معها أو ضدها ولهذا قام لك صورتها بغير أن يسبغ عليها من عواطفه شيئاً ، إنها تغري أهل الجبل بالكحت كلما بدا أن عزيمتهم وهنت فإذا عثروا على شيء اشترته منهم بالخن الذي يقررونه ، ربما لأنه مهما بالغ أهل الجبل في الخن فإن السعر الحقيقي لهذه الكنوز أضعاف ذلك ولو أن المؤلف لا يهتمها بشيء من ذلك ، وهي تنشئ علاقات جنسية مع حسين على ، لعلها لإشباع غريزتها ولعلها لمضاعفة حججها إغراءً فيما يتعلق بضرورة الاستمرار في الكحت .

ونحن لا نستمع إلى قصة الخواجاية من رواية حسين على فقط ، فقد اضطر فتحى غانم أن يتخلى عن صفته كأحد شخصيات القصة ، وأن يستعيد صفته كمؤلف يعرف خلجات شخصياته دون أن يروها له أحد ، وذلك حين أخذ يتحدث عن سهر الخواجاية في الليلة التي دخل فيها العمدة وحسين السرداب ليفتحا الكثر ، وعن مشاعرها وعلاقتها المضطربة بحسين على . وكانت هذه هي المرة الثانية التي اضطر فيها فتحى غانم أن يستعيد صفته كمؤلف ، أما

المرّة الأولى فكانت عندما وصف ما وقع في الكهف عندما تسلل والد حسين ثم تسللت وراءه ابنته زوجة العمدة ، فلاشك أن أحداً من الرواة لا يعرف ما حدث بينها بالضبط قبل العثور على جثتيهما ، وما كان من الممكن أن يطلع على ذلك إلا خالقهما وأعني بذلك مؤلفهما . أما فتحي غانم كأحد شخصيات قصته فقد أعجب أولاً بأهل الجبل ثم تحوّل الإعجاب إلى حبّ والحب إلى تحيّر ، وقد بلغ التحيز قمّته حين نراه يعزو إلى العلم هذا العلاج الأحقّق للمشكلة وهو بناء القرية النموذجية يعيش فيها أهل الجبل بغير عمل كأن الرزق سيسقط عليهم من السماء^(١) . ولاشك أن العلم برىء وأن الحمق فيمن يطبقونه على هذا النحو .

على أية حال فإنه من خلال رواية حسين على كان موقف فتحي غانم قد وصل إلى نهاية الشوط ، لقد بدأ القصة محققاً وها هو ذا ينتهى واحداً من المتهمين : لوجاء البوليس فلن يأتي للبحث عنى وحايّتي ، بل سيأتى للقبض على وإخراجي من الجبل فأنا لا أريد العودة إلى القرية النموذجية^(٢) . وفي الوقت نفسه تحوّل الجانب الآخر الذي يمثله المهندس والقاهرة والموظفون إلى تفاهات « كل ما يعرفونه أن مثل هذا الرجل الذي يجلس أمامي حرامى .. حسين على حرامى .. ما أشدّ غباءهم »^(٣) .

وقد وجد فتحي غانم أن حسين على « يدلى باعتراف كامل عن جرائمه .. متجاهلاً تماماً صفتي كمحقق ، وكرجل يقتضيه واجبه وأمانته في عمله أن يبلغ في الحال عن هذه الجرائم . ولكني لم أتأثر مطلقاً بالأزمة التي تدفعني إليها اعترافات حسين . كنت قد نسيت صفتي كمحقق وفقدت معنى وظيفتي ولم أعد أفهم مدلولها في هذا المكان ، لم أعد قادراً على تصور أفعال حسين على أنها جرائم يعاقب عليها القانون .. إنه ظلم .. ظلم بشع .. لا يمكن أن أساعد عليه ، حتى ولو اتهمت بأني غير أمين في عملي .. أتستر على الجرائم ، وأخالف القانون الذي يجب أن أطبقه^(٤) . و« الآثار المزيقة التي يصنعونها ويبيعونها للسياح على أنها أثرية ليست مزيقة ؛ لأنها من صنع أيديهم ؛ لأنها نتيجة عملهم ؛ لأنها ترمز للعمل ، العمل هو الكثر الحقيقي »^(٥) . وأخيراً فإن الحكومة ليست حكومتهم لأنها لا تفكر إلا في السيطرة عليهم^(٦) .

ولهذا فإنه عندما عاد إلى الأقصر وقابل صديقه وكيل النيابة ، كان على وشك أن يروى له

(٤) الجبل ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٥) الجبل ص ١٧٦ .

(٦) الجبل ص ١٧٧ .

(١) الجبل ص ١٥٠ .

(٢) الجبل ص ١٥٠ .

(٣) الجبل ص ١٥٠ .

ما شاهده في الجبل ولكنه يقول : عدلت كأن كل ما سمعته سرّ خاص بي ، لا يصح أن أبوح به لغريب ^(١) . ذلك لأن فتحي غانم لم يعد فردًا من أفراد السلطة الحاكمة بل واحدًا من المتهمين ، وأية غربة تقف بين صاحب الاتهام والمتهم ؟ ولهذا بدا وكيل النيابة غريبًا عنه « كأن لم تكن بيننا صداقة يومًا ما » ^(٢) .

ولهذا عندما عاد إلى إدارة التحقيقات بالقاهرة كان ملف التحقيق خاليًا ، ليس فيه غير شكوى حسين علي . لقد عرف أسرار القضية لكنه انضم إلى المتهمين فلم ينقل حرفًا منها إلى الذين ينفذون القانون . ولكن هل تخلى فتحي غانم حقًا عن صفته كمحقق . السخرية الثانية في هذه القصة هو أنه قام فعلاً بدور المحقق وأصدر حكمه ولكن لغير حساب إدارة التحقيقات ، لأنها كانت تريد نتيجة معينة من أول الأمر لم يصل إليها المحقق فتحي غانم ، وهي تزوير مشاكل أهل الجبل وطمس كل الحقائق وتحويلها إلى أسئلة سخيفة ^(٣) . ولكنه أعلن محضر التحقيق بعد مضي سبع سنوات ، أعلنه في قصة « الجبل » على جمهور القراء . ذلك أن فتحي غانم نشر قصته « الجبل » تبعًا في إحدى المجلات الأسبوعية المصرية عام ١٩٥٨ ثم جمعها في كتاب نشر في فبراير عام ١٩٥٩ . ولكنه في بداية القصة يقول : حدث منذ أكثر من سبع سنوات .. ولما كانت القصة - بالنسبة للمحقق - لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، فعنى هذا أن أحداثها وقعت حوالى عام ١٩٥١ ، وإن كانت كتابتها أو نشرها لم يتم إلا بعد ذلك بسبع سنوات .

وقبل عام ١٩٥٨ بنحو عشرين عامًا ظهرت قصة أخرى كان موضوعها يدور حول محقق يقوم بالتحقيق في قضية مقتل « قمر الدولة علوان » وكان عنوان القصة « يوميات نائب في الأرياف » للأستاذ توفيق الحكيم . ومن غريب الاتفاق أنه كتبها ونشرها بعد ست سنوات من وقوع أحداثها ، فقد نُشرت عام ١٩٣٧ وهي تعبر عن قطاع من الحياة المصرية ما بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ . أما أحداثها فقد وقعت بالنسبة لمؤلفها في اثني عشر يومًا .

ولما كان المحقق في كلٍّ من القصتين هو المؤلف نفسه بالإضافة إلى تشابه الموضوعين ، فإنه من اليسير أن نعقد مقارنة بين العاملين الفنيين اللذين فصل بينهما عشرون عامًا ، ولنعرف أين

(٣) الجبل ص ٨٩ .

(١) الجبل ص ١٨٥ .

(٢) الجبل ص ١٨٥ .

وقف توفيق الحكيم وأين وقف فتحى غانم ، وما سبب كل من الوقفتين والنتائج التى ترتبت على ما بينهما من اختلاف .

ونحن نستطيع أن نلخص موقف فتحى غانم بأنه موقف المحطّم لقداسة السلطة الحاكمة وأنه انضم إلى جانب الذين ذهب ليحقق معهم ، وكانت النتيجة أنه استطاع أن يحصل على اعترافات « المتهمين » ولكنه لم يبلغ السلطة شيئاً مما حصل عليه وإن أبلغه الجمهور القراء .

أما موقف توفيق الحكيم فى يومياته فقد كان موقف الساخر من الجميع ، من الذين يطبقون القانون ومن الذين يُطبق عليهم القانون ومن القانون نفسه ، لم يكن عاطفة مودة أو احترام لأى طرف من هذه الأطراف الثلاثة . واليوميات من أولها إلى آخرها شواهد على ذلك . فالقائمون على تنفيذ القانون يمثلهم توفيق الحكيم بقاضيين متناقضين ولكنها فى النهاية صورة ساخرة لما يجب أن يكون عليه القاضى ، فهما يتناوبان العمل ولكن أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة المتجهة إلى القاهرة ، مهما بلغ عدد القضايا . والثانى يقيم بدائرة المركز ولكنه ذو وسواس ، يبطئ فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ، فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سُمّرت فيها فلا يفصل عنها إلا قبيل العصر ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . هذا فضلاً عن سخريته من المأمور وسخريته كذلك من القاضى الشرعى وما يتقبله من رشوة . بل إن توفيق الحكيم يسخر من نفسه ومن جميع القائمين على تحقيق العدالة حين يقول : أنا ملاذ العدل ، أين هو العدل ؟ إني لا أعرفه ولم أره .. لأن أحداً لم يعطني ، إنهم يطلبون إلى أن أنظر فى شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر فى شكاوى وشكاوى المئات من زملائي^(١)

ثم هو يسخر من القانون وقد عبّر عن ذلك فى أكثر من واقعة ذكرها ، ويكفيها أن نذكر المتهم الذى جرى به أمام القاضى بتهمة غسل ملابسه فى التربة ، وقد تساءل المتهم عما إذا كان هناك مكان آخر يغسلها فيه « فردّد القاضى وفكّر ولم يستطع جواباً » ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصبّ فيها الماء المقطّر الصافى من الأنابيب ، فهم

(١) توفيق الحكيم : يوميات نائب فى الأرياف ، كتاب الهلال ، القاهرة ، العدد ٥١ ، يونيو ١٩٥٥ ، ص ١٨٦ .

قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون استُورد من الخارج على أحدث طراز»^(١) .

ورغم إدراك وكيل النيابة توفيق الحكيم هذه الحقيقة إلا أنه لا يعطف على المتهمين ، فعندما التفت القاضى إليه قال له : النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ، ولكن ما يعنينا هو تطبيق القانون . وكان أن حُكم على الرجل بغرامة قدرها عشرون قرشاً^(٢) ثم يعترف توفيق الحكيم قائلاً : ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أر واحداً من المخالفين قد بدا عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرْم وقع عليه من السماء كما تقع المصائب ، وإتاوة يؤدونها لأن القانون يقول إنهم يجب عليهم أن يؤدوها . ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب !^(٣) .

فى موضع آخر يقول : « القانون عندى قبل كل شيء مسألة قانون »^(٤) . ولكن المحقق توفيق الحكيم لا يتهكم على ممثلى السلطة الحاكمة ولا على القانون أداة هذه السلطة فقط ، بل هو يسخر أيضاً من الشعب الذى يطبق عليه هذا القانون ، فهو يتحدث عن نفسه وقد جلس ممثلاً للأنعام فى المحكمة والقاضى ينظر فى قضايا مخالفات لذبح خرفان خارج السلخانة فنراه يقول : وجعلت أرواح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة ... وقد ملأوا المقاعد و « الذك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات .. فجلسوا القرفصاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يده عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالفات فصاح : فهمونى الحكاية ؟ الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة ؟ ثم يسخر توفيق الحكيم من الحاكم والمحكومين على السواء حين يقول : وحملق - أى القاضى - فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الرابض على طرف أنفه ، ولم يفتن أحد - ولا هو نفسه - لما فى هذه العبارة من تعريض^(٥) .

وهؤلاء الأغبياء - كما يعتقد المحقق - لا يمكنهم لغباوتهم طبعاً أن يلقوا أى ضوء على القضية الغامضة ، وهنا تتضح لنا العلاقة الحية بين السخرية بالناس وفشل التحقيق ، فالمحقق

(٤) يوميات نائب فى الأرياف ص ٧٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩ .

(١) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

يحضر إحدى الجارات ليعرف منها اسم خاطب « ريم » أخت زوجة الجني عليه قر الدولة علوان ، ويصف المحقق توفيق الحكيم هذه الجارة بأنها كثيرة الكلام بحيث قلبت دماغه بالكلام الفارغ ، وهى إلى جانب ذلك عمشاء تنظر إلى الواقفين فى عملية العرض لإخراج الخاطب بعينها « العمشاء » نظرة « العرضحالى الأصبش » إلى عريضة يرفعها فى يده حتى تمس أنفه^(١) وكان من الطبيعى ألا تستدل على الخاطب ، فازداد احتقار المحقق لها حتى أنه لم يتألك أن صاح : اخرجى يا « قرشانة » يا « وحشة » يا « قليلة الحيا » ضيعت نهار بحاله ، إخص على دى شهود .. ثم نعمم سخريته - وبالتالى يزداد غموض القضية - حين يقول : وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضى أو من يعرف شيئاً عن الموضوع فصرفتهم^(٢) .

وكانت النتيجة الطبيعية والمنطقية لهذا الموقف المنعزل عن الجميع أن قضية مقتل قر الدولة علوان ظلت قضية مغلفة على المحقق . يقول وكيل النيابة توفيق الحكيم فى أول يومياته : إني منذ قرأت « الإشارة » أدركت أن القضية ميتة ، وهل أستطيع أنا بتحقيقى أن أبعث الحياة فيها لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل على الشهود بالصدق وتعاوننى الأهالى بالرغبة والإخلاص ، فأى محضر فى الوجود يوصلنى إلى التشرف بمعرفة جان من الجناة ؟^(٣) .

والواقع أنه لا يمكن لشهود أغبياء وأهالى مواش فى نظر المحقق أن يعاونوه ، ولكن هل كان الشهود حقاً كما كان يتصورهم المحقق توفيق الحكيم ؟ أليس من المحتمل أن هذه المسافة التى تقوم بينهم وبين المحقق هى التى تحملهم على الحذر والحرص منه ، وتجعلهم يحسبون أن أى اعتراف سيدلون به قد يعود عليهم بالضرر ؟ إن شهوداً أمينين ريفيين لا يستطيع محقق مثقف أن يحصل منهم على دليل واحد لا بد أن يتصفوا بالعناد والذكاء وإن كان الاعتراف بذلك أمراً شاقاً على المحقق .

حتى الشيخ عصفور الذى يصفه المحقق بالعتة^(٤) هو الذى يقوم بهرب ريم عند القبض عليها وهو الذى يهرب مرة أخرى بعد أن لحها المحقق معه عند المستشفى الأميرى ، وعندما يُقبض عليه لا يستطيع المحقق الاستدلال على شىء من أقواله فيُضطر إلى الإفراج عنه ، وعندما

(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ .

يحاول أن يستدرجه ويغريه بترويجه من ريم يسخر المعتوه من المحقق العاقل قائلاً :

نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب
وديل الكلب ما ينعدل ولو علقوا فيه قالب

وأخيراً يعترف المحقق بالهزيمة أمام هؤلاء « الأغبياء المواشي » وتتصرف نفسه عن القضية وأصحابها^(١) ، وفي النهاية يقول كأنما في غيظ : فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يُعرف . لم يُعرف . طبعاً لم يُعرف ولن يُعرف^(٢) . وهكذا كتب في ذيل المحضر التأشيرة المعهودة : تُحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل^(٣) .

وهكذا نجد أن المتهمين في كل من يوميات نائب في الأرياف وفي قصة الجبل متفقون على عدم التعاون مع السلطة الحاكمة وممثليها والوقوف منهم موقف المتهرب أو المعاند ، وقد انتهت القصتان إلى نتيجة واحدة وهي أن السلطة الحاكمة لم تحصل على أية معلومات تدين المتهمين . ولكن الاختلاف بين العاملين هو أن محقق يوميات نائب في الأرياف اتخذ موقف المتهم على ممثلي السلطة والمحكومين على السواء ، بينما محقق الجبل تهكّم على ممثلي السلطة لينضم إلى المتهمين ، وكانت نتيجة هذا الاختلاف أن محقق يوميات نائب في الأرياف لم يحصل على أية معلومات بالنسبة لقضيته ، بينما حصل محقق الجبل على كل الاعترافات المطلوبة وما وراءها من معلومات نفسية واجتماعية ومادية ، وإن لم يبلغ رؤسائه منها شيئاً .

ولاشك أن هذا الاختلاف الأساسي بين القصتين يرجع إلى اختلاف الظروف المكانية والزمانية وتفكير كل من المؤلفين أو المحققين .

فن ناحية المكان نجد أن يوميات نائب في الأرياف تتناول بيئة ريفية في الوجه البحري ، هذه البيئة التي وصف توفيق الحكيم أهلها - من وجهة نظره - بأن فيهم نقصا خلقياً مضافاً إلى ما بهم من أمراض جثائية وفكرية واجتماعية كثيرة . وأنهم قليلو المقدرة ، ضعيفو الثقة بالنفس ضعفاً منشؤه اشتغالهم بأعمال العبيد من قديم في الأرض والزراعة وترك الفروسية للمغيرين^(٤) . أما قصة الجبل فتتناول بيئة جبلية في الصعيد لم يصل إليها كثير من أقدام المغيرين ، ولعل لمشاهدة أهل الجرنّة للسياح أثرها في صمودهم هذا الصمود الإيجابي أمام السلطات ، فهم

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٢ .

(١) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

يشاهدون بين هؤلاء القادمين الغرباء من هم أوفر مالا أو أعظم هبة من أفراد هذه السلطات مما يقلل من شأنهم في نفوسهم .

أما من ناحية الزمان فقد عثرت يوميات نائب في الأرياف عن ريف مصر ما بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣١ ، أيام الأزمة الاقتصادية التي طحنت العالم وقتئذ وأيام الإرهاب الذي فرضه محمد محمود ومن بعده صدق على البلاد . وتزييف الانتخابات التي يشير إليها توفيق الحكيم في يومياته إنما هي الانتخابات التي أجراها صدق وزيفها ليحصل حزب الشعب الذي آلفه على الأغلبية . وتوفيق الحكيم لا يغفل عن هذا ، فهو يربط بين نتيجة قضيته والأوضاع الاجتماعية والفكرية فيقول : إن العدل والشعب .. إلخ . كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد . كلمات مهمتها أن تُكتب على الورق وتُلقى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحسن لها وجود حقيقي . فلماذا ينتظ مني أن آخذ على سبيل الجدّ روح « سى قمر الدولة علوان » ؟ إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجنى عليهم في هذا المركز والمراكز الأخرى في القطر ، ذهب دمهم جميعاً أرخص من المداد الذي جرت به محاضر قضاياهم ^(١) .

أما قصة الجبل فقد وقعت أحداثها عام ١٩٥١ ، وهو العام الذي كانت مصر تغل فيه بالثورة على النظام الملكي ، ولهذا لم يكن مستغرباً من العمدة أن يصرح قائلاً : شوف يا ابني ، أنا لا يهمني المهندس ولا الحكومة ولا الملك كمان . فهذه المقاومة الإيجابية إذن من أهل الجبل من ناحية وانضمام المحقق إلى المتهمين من ناحية أخرى لم يكن أمراً شاذاً عام ١٩٥١ ، فقد كانت المظاهرات ضدّ نظام الحكم تعمّ القطر في ذلك الوقت ، كما كان كثير من يمثلون السلطة الحاكمة قد انضموا إلى الشعب ، ولم يعودوا يتعاونون مع الحكومة التي يمثلونها ، ولم يكن المحقق فتحي غانم سوى رمز هؤلاء .

ولعل هناك أخيراً سبباً يتعلق بشخصية كل من توفيق الحكيم وفتحي غانم وموقفها من المجتمع الذي يعيشان فيه ، فتوفيق الحكيم أميل إلى العزلة . وقد برهن أكثر ما كتبه بعد عودة الروح على أنه يفضل ويجيد معالجة القضايا معالجةً فكريةً حتى لقد أطلق على مسرحه اسم المسرح الذهني وهو الذي وصفه بأنه المسرح الذي يقيم داخل الذهن ويجعل فيه الممثلين أفكاراً تتحرك مرتديةً أثواب الرموز . ولعل لهذا أثره في موقفه كمحقق في يومياته حين نراه

(١) يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٦٨ .

لا يستطيع أن يندمج مع المتهمين رغم إدراكه وتهكمه على القانون وعلى القائمين بتنفيذه . أما فتحى غانم فإنه يضع نفسه فى أول صفحات قصته مع الذين يقول عنهم مدير التحقيقات : أنا عارف كويس أفكارهم اللى حتخرب البلد .. بس فالحين تقولوا على نفسكم إنكم متحررين ، وإننا ناس بتوع زمان ، أيامنا انتهت وخلاص راحت علينا^(١) . وهذا هو ما ذكرناه فى أول مقالنا موضحين أن فتحى غانم يريد أن يؤكد أن اختلاف عقلية المحقق تتبعها بالضرورة اختلاف نتيجة التحقيق .

وهكذا خطا فتحى غانم فى قصته الجبل خطوةً أخرى بعد وقفة توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف ، وقد عاونه على ذلك - بطريق غير مباشر - عشرون عامًا فصلت بين أحداث القصتين وطوّرت عقلية المحقق والمتهمين على السواء وبالتالي طوّرت عقلية الكاتب ومخلوقاته . كما ساعده على ذلك - بطريق مباشر - قراءته لليوميات ، فهو - بلا شك - مدين لها بهذه الخطوة التى خطاها عن قصد ووعى .

(١) الجبل ، ص ٧ .